مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٣ ١٩ شوال سنة ١٣٧٢

(كلمة السمرمر اسماً للطائر)

(من أية لغة جاءت؟ وما حقيقة هذا الطائر؟)

رددت الصحف (وأصبحت تردد اليوم) أخبار الجراد الذي حام حول سورية وأخذ يهددها حتى أزعجت زيارته السوريين قاطبة ولا سيما المزارعين الذين خشوا غائلته وعقبى النوائي في مكافحته ودفع أذاه. وجرى الحديث بهذا الشأن في بعض أندية الأدب ومال بأهله الكلام الى ذكر طائر (السمرمر) وعجيب خبره، وانه اذا اقتحم أرجال الجراد فرّق شملها وكفى البلاد شرها. ولكن كيف الوصول الى هذا الطائر؟ فقلت: إن أخبار (السمرمر) وفتكه بالجراد الى حد الإبادة غير صحيحة، حتى يكاد (السمرمر) بما يُروى عنه من القصص يصبح طيراً خرافياً كالعنقاء. فانبرى للرد عليّ بعضُ الاخوان وكانوا من فضلاء حلب فاشتدت عارضتهم في معارضتي. وقالوا إن طير السمرمر ثابت الوجود في بلادهم. وسماء ديارهم. وشائع الذكر على ألسنة خاصتهم وعامتهم. وانهم يرونه بعيونهم. ويصطادونه بينادقهم. وكانت حجتي التي حضرتني في ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحين هي أن السمرمر لو كان فتكه بالجراد الفتك الذي يزعمه الناس لما خفي أمره على الحكومات التي تعاني ما تعاني في كفاحه . واتخاذ أعنف الوسائل في إبادته . الى أن اهتدوا أخيراً الى مواد كيماوية قاتلة كـ (الأكريسيد) و (الألدرين) ولم نسمع ان حكومة ما استعانت بالسمرمر . وكلفته مهمة هذا الكفاح . والاوربيون الذين اخترعوا من الجمادات طائرات تطير ، لا يعجزهم ان يدجنوا طائراً يرونه تحت مواقع أبصارهم وتناول حبائلهم ثم يستخدمونه في مكافحة الجراد . وكل ما في الأمر أن (السمرمر) أطلقه أناسُ القرون الأخيرة في الشرق الأدنى على الطير الذي يأكل الجراد . وسباعُ الطيور من شأنها ان تأكل الفيران والحشرات والديدان والأفاعي بلهَ الجراد . وجارنا ابوالمرقال (أعني الغراب) لا يقصر في مهمة أكل الجراد كما قال عنه الجاحظ . عندها اشتد الجدال حول هذه المسألة بين الجلساء : ورأيت نفسي في حيرة من أمري أمام من قال ان السمرمر نراه ونصطاده ونسميه بهذا الاسم . وتنسمت من أقوال هؤلاء الفضلاء ان الديار الحلبية ربما كانت مهبطاً لشهرة هذا الطائر ، وأكبر محلٍ لتصدير بضاعة أقاصيصه . كما يظهر للقارئ فيما نسرده عليه من أدوار نشوء قصة السمرمر . وورود ذكر حلب في تضاعيفها . ثم أرضيت القوم بقولي قد صحَّ عندي أن في حلب وغيرها من بلادنا طائراً يأكل الجراد ويسميه الناس (سمرمراً) ولكنَّ طاقةَ هذا الطائر قلما تُغني في صدّ عادية الجراد وإبادته كما يزعم الزاعمون . وهكذا انتهى الحديث . وهدأت الشقاشق .

وقد رأيتني بعد هذا الحوار منساقاً الى مراجعة المصادر اللغوية والعلمية التي تكشف القناع عن حقيقة هذا الطائر . ومن أية لغة جاء اسمه (سمرمر) فراجعت بعض المصادر وأخذت (نوطة) عن بعضها الآخر ، ثم نبهني منبه الى ما كتبه الشيخ كامل الغزي في تاريخ حلب من أخبار تُروى عن السمرمر حينما كان يقدم الجراد الديار الحلبية . وقد وصف لنا الشيخ الغزي مبلغ انخداع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الناس به . فشدَّ ذلك من عزيمتي على كتابة مقالي هذا عن (السمرمر) وغريب خبره ومنشأ اسمه أو أضعافه .

وما أكتبه عنه لا يكون موثوقاً به ما لم يُرجع فيه الى علماء علم الحيوان والتاريخ الطبيعي وعلماء الزراعة وأبحاثهم في الجراد ووسائل مكافحته في مختلف أدوار التاريخ : هؤلاء بنو اسرائيل أدَّبهم الله بعقوبات أشهرها الجراد فدفعوا كيده بكل وسيلةٍ حتى وسيلة الأصواتِ المزعجة ودقّ الطبول والأواني التنكية وما شابه ذلك كما ذكره الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس ، ولم يذكر بوست طائر السمرمر بهذه المناسبة في ما عدد من الوسائل ولا أن اليهود لجأوا الى الله كما هي عادتهم طالبين منه إرسال السمرمر اليهم : فالسمرمر وبطشه بالجراد في تلك الأزمان الخالية لم يكن معروفاً في المشرق على ما يظهر . أما عرب الجاهلية فلم يكونوا يعرفون قط طيراً باسم السمرمر ولو عرفوه لجاء ذكره في أخبارهم وأشعارهم ولكان اسمه مدوّناً في معاجم لغتهم . وهذه دواوينهم ومعاجمهم وأكبرها المخصّص واللسان والتاج لم يذكروه مع أنهم ذكروا كثيراً من سباع الطير التي تلتهم الأفاعي والهوام . ومن الغريب أن صاحب التاج لم يحفل بكلمة (السمرمر) ولم يدونها في شرحه ومستدركه مع أنه عاش في القرن الماضي الذي استفاض فيه خبر السمرمر في بلادنا على ما سيجيء . والأعجب من ذلك ان صاحب القاموس ذكر ان السمرمرة هي الغُول . والسمرمر من مادة السمرمرة لكنه أهمل ذكر السمرمر بمرةٍ واحدة : فلم يذكر اسمه وانما ذكره المعجميون المعاصرون كبطرس البستاني الأول في محيط المحيط وعنه أخذ صاحب (أقرب الموارد) أما البستاني الثاني أعني صاحب البستان فقد ترفع عن ذكر السمرمر فلم يذكره تأسياً بالمعاجم الكبرى التي تدوّن لغة العرب وما تخللها من المعرّبات المعروفة في العصور الأولى ، وكلمة السمرمر جاءتنا في العصور المتأخرة بدليل إهمال المعاجم القديمة لها . وبدليل آخر أظهرُ بياناً . وأعزُّ سلطاناً . وهو أنْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من دوّن أخبار الحيوان من العلماء المعروفين لم يذكروا اسم السمرمر في كتبهم فالجاحظ في كتاب (الحيوان) لم يذكره . ولما ذكر الجراد قال إن العصافير والغربان تأكله ، واقتصر عليهما مع أن السمرمر لو صحّ خبره لكان أحقّ بالذكر وأولى . ومثل الجاحظ ابن المقفع في كتابه (كليلة ودمنه) الذي أبدع في ذكر الأمثال والقصص على لسان الطير فهو لم يدع نكتةً الا ذكرها ، وقد ذكر من الطيور ما لا قيمة له . أما السمرمر فلم يذكره بخبر ما مع أن مزيته لو صحت لأشار اليها فيما ذكره من لطائف طباع الطير . وهذا القلقشندي المتوفى سنة (٨٢١) في كتابه الجامع (صبح الأعشى) ألّفه لما يحسن بالكاتب والمنشئ أن يعلمه من الشؤون المتعلقة بفن الكتابة ويستوعبه من الأوصاف التي يحتاج اليها الكاتب : من ذلك الطيور وخصائصها . وقال إنه يجمل بالمنشئ ان يعلم كل ذلك ليذكره اذا كتب ووصف ومدح أو ذم . ثم نرى القلقشندي وصف معظم أصناف الطير فذكر (السَّمَنْدَل) وما قيل في أخباره وأوصافه . والسُّمانى وهي من فصيلة السمرمر كما صرح بذلك بعض علماء الحيوان المتأخرين . أما السمرمر فلم يذكره ولم يتعرّض له بحال . ومنهم الدميري المتوفي سنة (٨٠٨) في كتابه المشهور باسم (حياة الحيوان) فانه لم يذكر (السمرمر) ولم يتعرض له في أخبار الجراد ولا أنه من آكلاته ، مع أنه تعرض لدفع شرّ الجراد بالأدعية والأوراد والآيات القرآنية التي تكتب وتلقى في الحقول والمزارع المصابة به . وجاء بعد الدميري الشيخ السيوطي المتوفي سنة (٩١١) هـ فألف في الحيوان كتابه المسمى بـ (ديوان الحيوان) وهو من مخطوطات مكتبتي : فلم يذكر السمرمر واستدرك على الدميري ما أغفله من أسماء بعض الطيور فلم يذكر السمرمر في جملتها .

وصلنا الى القرن العاشر الهجري فلم نسمع بذكر للسمرمر ولا باسمه : لا في كتب اللغة ولا في كتب الحيوان . حتى جاء القرن الحادي عشر فسمعنا الشهاب الخفاجي المتوفي سنة (١٠٦٩) هـ يقول في كتابه (شفاء الغليل) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السمرمر لفظ فارسي . قال الكتيباني : إن السمرمر اسم طائر ببلاد العجم يأكل الجراد . وله مكان عند عين ماء يجتمع لديها ، فاذا أخذ من مائها وعلق على رؤوس الرماح تبعه الطائر حتى يُؤتى به الى بلدٍ يراد افناء جرادها . وقد وقع ذكر السمرمر في أشعارٍ عربية للمولدين وهو بالتركية (صفرجق) اه فنتساءل أولاً من هو هذا الكتيباني ، وقوله (للمولدين) يشعر بأن العرب الأقدمين لم يعرفوا السمرمر . ومعنى (صفرجق) بالتركية (الزُرزور) كما في معجم (كنز لغات) . فالسمرمر عند الأتراك ليس هو سوى (الزُرزور) . وهكذا الفرنسيون لا يفهمون من السمرمر الا الزُرزور . بدليل أن البستاني الأول في دائرة المعارف العربية لما جاء ذكر السمرمر ذكره تحت اسمه بالفرنسية هكذا (étourneau) الذي معناه الزُرزور . ومثله الدكتور شرف فانه لما ذكر في معجمه اسم الزُرزور بالانكليزية (starling) فسره بالفارسية بكلمة (سار) وبالعربية بكلمة (زرزور) .

والانكليز في معاجمهم اذا عرض لهم ذكر السمرمر المشهور في الشرق فسروه باسم (starling) الذي معناه الزرزور . ففي قاموس (تشمبرز) الانكليزي ص ٦٦٧ ما ترجمته بالعربية : (السمرمر طير جميل ورديّ اللون من فصيلة الزرزور قاطن غربي آسيا) . وقوله من فصيلة الزرزور يعني من عائلته كما اختار التعبير بالفصيلة بدل العائلة بعض المعاصرين ، فالزرازير منها الأرقط وهو كثير الوجود في بلادنا والرقطة في اللغة العربية لون السواد الذي يخالطه نُقط بيض ومنه الحية الرقطاء . ومن الزرازير ما ليس بأرقط بل يكون وردي اللون فيصحُّ أن نسميه الزرزورَ المورَّد أو الورديَّ اللون . وهو الذي خصه العامة باسم السمرمر .

وقد اختلف الكتاب في توصيفه وتحليته : فتشمبرز الانكليزي قال إنه ورديّ اللون كما مر ، وقال غيره غيرَ هذا كما يأتي . لكنهم أجمعوا على أنه أسود أو أن السواد غالب عليه وقد طُرِّز السواد بألوانٍ اخرى كالحمرة والصفرة . ويظهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن متحف التاريخ الطبيعي في بغداد اقتبس عن (تشمبرز) وصف السمرمر: فقد ذُكر في قائمة الطيور العراقية (نشرة رقم «٢») ما ترجمته بالعربية (زُرزور وردي سمرمر من طيور المرور المهاجرة) أي من الطيور القواطع. وهكذا نرى أن طير (السمرمر) لم يشتهر اسمه وخبره على ألسنة الكتاب الا بعد الألف للهجرة. والكتاب الشرقيون والغربيون ولا سيما أصحاب المعاجم ينقل بعضهم عن بعض: فالشرتوني إنما لخص ما قاله البستاني الأول في محيط المحيط. ونص عبارة البستاني: (السمرمر طائر يشبه السماني أسود اللون مريعُ الصوت يزعق على الجراد ويأكل منه كثيراً فلا يشبع ولذلك ينهزم الجراد من صوته ويلقي نفسه في البحر غالباً وهو ضدٌّ عظيم له) وقوله هذا في السمرمر يشبه أن يكون صدًى لما يتحدث به العامة عنه. وما أعجب كثرة الاختلاف في السمرمر: أأسود هو أو ملون؟ أيشبه الزرزور أو السُماني؟ أيفتك بالجراد بواسطة زعقه عليه، أو أكله له بلعاً، أو بتمزيقه لجسمه؟ ثم كيف يمزقه؟ وبعد تمزيقه أيأكله أو يطرحه أشلاءً مبعثرة؟ واذا أكله كيف يهضمه؟ ثم أيستقر في جوفه، أو يقذفه من فوره؟؟ كل ذلك سمعناه من أفواه أناس مختلفي الثقافات، ومنهم من ثقافته عالية. على أن المتأخرين من الخاصة الذين دوَّنوا خبر السمرمر كأرباب المعاجم المسيحية لا يعدو كلامهم كلامَ العوام من حيث التردّد والتساؤل. وفي يقيني أنك لو عرضتَ سمرماً تحت أنظار جمهور من الناس لتمارَوا فيه وتحالفوا: فمنهم من يزعم أنه السمرمر بعينه. ومنهم من يزعم أنه غيره. فيدّعون ان شيات السمرمر كيتَ كيتَ لا كيت ولا كيتَ. ولا يزالون مختلفين الى آخر أيام الناس. والبستاني في دائرة المعارف ترجم للسمرمر بما يشعر بضعف الثقة بعجائبه. وقد جعله زرزوراً إذ فسره بالفرنسية بقوله (étourneau) كما مرّ وقال إنه من فصيلة الزُرزور. لكنه قال عنه انه يشبه السُماني. ولما حلاّه جعل له عُرفاً طويلاً حالكَ السواد مع لمعانٍ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بنفسجي في العنق والجناحين والذنب . وجعل لونه ورديًا في ما عدا ذلك وفي ماعدا ساقيه السمراوين الضاربين الى الصفرة . والعُرف بضم العين شعر عنق الفرس فاستعاره لريش عنق السمرمر . فالسمرمر على قول البستاني أسود بنفسجي فيه حمرة وصفرة . أما رأيه في أسطورة إبادته للجراد فقد عبَّر عنها بما يشعر بالضعف وقلة الثقة ، إذ قال : واشتهر السمرمر بمخاصمة الجراد قيل ويجتمع أسرابًا ويطارد الجراد ويأكل منه كثيراً . فقوله (واشتهر مع قوله قيل) يدلُّ على البراءة من صحة هذا الخبر عن السمرمر كما يدل على أن أسطورته في اكتساح الجراد ضعيفة أو مبالغ فيها : إذ هو (أي السمرمر) في ذلك كسائر أبناء عمه الزرازير والسُّمانيّات والسودانيات والصَّفاريّات : يأكلون الجراد مع تفاوت بينهم في مقدار الشره والالتهام . وكأن صاحبنا (السمرمر) أكثرُ التهامًا وأشدُّ شرَهًا حتى أدى ذلك الى تولد أسطورته وولوع القُصَّاص بعجائبه . وكيف تولدت هذه الأسطورة ؟ وشاعت تلك العجائب ؟ ذكرنا آنفًا ما قاله البستاني في الدائرة عند ذكر السمرمر في حرف السين . وكان في حرف الجيم (عند ذكر الجراد) قال :

وأكثر ما اشتهر عند العرب في إتلاف الجراد طيور يسمونها بالطيور السودانية تأتي من نواحي عين بأصبهان يقال لها (سُمَيْرَم)[1] ويسميها أهل الشام وما يجاورها (أي يسمون تلك العين أو تلك الطيور السودانية) بالسمرمر ويسميه الافرنج بالسلوقي اه .

---

(١) « سُمَيْرَم » بضم فتح فسكون فتح اسم قصبة بين أصبهان وشيراز البها ينسب وزير السلطان محمود السلجوقي وهو نظام الدين السُّمَيْرمي الذي قتل الطغرائي بتهمة الالحاد ظلماً . وكان الطغرائي وزيراً للسلطان مسعود السلجوقي وقتله كان بعد أن قهر محمود على مسعود (راجع تفصيل ذلك في ابن خلكان في ترجمة الطغرائي في حرف الحاء) وأخبرني بعض الفضلاء الايرانيين ان سميرم هذه ما زالت قصبة معروفة في ايران الى اليوم لكنهم يلفظونها بفتح السين وضم الراء أي غير مصغرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم أتمكن من معرفة تسمية الافرنج للسمرمر بالسلوقي حسبما روى البستاني . أما قوله إن السمرمر من الطيور التي اشتهرت عند العرب باسم (الطيور السودانية) فإن هذه الطيور السودانية أمرها مشهور ومدون في كتبهم ويجمعون السودانية أحياناً على السودانيات . واسمها يدلُّ على أنها سود الألوان : فهي في عالم الطيور كالسودان في عالم البشر ، فالسمرمر على هذا أسود . والسودانيات اسم عربي قديم بخلاف (السمرمر) فانه اسم حديث أطلقه سكان الديار الشامية على نوع من السودانيات المذكورة . قال السيوطي في كتابه (ديوان الحيوان) : (والسودانية طائر يأكل العنب لعله الزرزور . وقال النضر السودانية هُنَيَّةٌ سوداء طويلةُ الذنب بصفر الضَجْرة وسوادها)اهفالسمرمرمن نوع السودانيات أي الطيورالسود الصغيرة .

وقول البستاني (الطيور السودانية المعروفة بالشام بالسمرمر تأتي من نواحي عين بأصبهان يقال لها سَمَيْرَمْ) قوله هذا يفتح أمام أعيننا أفقاً جديداً في موضوع (السمرمر) من حيث الوضع اللغوي وسيأتي تفصيله ـ كما يدلّ كلام البستاني على أن السمرمر وأخباره أسطورة عجمية موطنها الأصلي بلاد العجم أي ايران اليوم . وما قلناه في التعليق على رواية البستاني في الدائرة نقوله في التعليق على قول الخفاجي في كتابه (شفاء الغليل) الذي مرَّ آنفاً وقد قال فيه : إن مكان السمرمر عين ماء ببلاد العجم . وزادنا الخفاجي تعريفاً بخواص السمرمر وهو أنه يتبع الماء المأخوذ من العين والمعلَّق على رؤوس الرماح الى حيث يكون الجراد فيأكله .

فمن قول الخفاجي هذا وما تلاه من قول البستاني في دائرة المعارف نضع مبدأ « الأسطورة السمرمرية » تحت نظر القارئ ونعمل على تعيين الزمن الذي تولدت فيه بقدر ما وسعه علمنا القاصر :

الأسطورة السمرمرية ذكرها الخفاجي في القرن الحادي عشر للهجرة ، فيظهر أن اسم السمرمر وقصته جاءت بلاد الشام في حدود الألف للهجرة ومما يأتي من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النقول التاريخية تستدل على أن حلب هي أول من تلقى هذه الأسطورة من بلاد العجم، ثم أشاعتها في سائر البلدان الشامية وما جاورها . ولا غرو فحلب في العهد التركي العثماني كانت محطة كبرى لحجّاج العجم وتجار العجم وقوافل العجم ولسائر الدراويش والبكداشلية والقلندرية والمتسولين الواردين من بلاد العجم .

اتصلنا ونحن نجمع مواد هذا البحث بالمفوضية الايرانية بدمشق . وسألناها تلفونياً عن السمرمر واننا نريد أن نستطلع طلعه من المصادر الايرانية . فأجابت من فورها إن قصة السمرمر من الأساطير الفارسية وأن دراويش ايران هم الذين نشروها في البلاد بواسطة بيعهم لماء السمرمر . وأن السمرمر ليس الا الزُرزور المسمى بالفارسية (سارْ) . ثم وعدت المفوضية مجمعنا الدمشقي بأنها سترسل اليه ما يُمليه بهذا الشأن معلم اللغة الفارسية بدمشق وهو الأستاذ (آغا آرام) أو (أحمد آرام) وبالفعل أرسل الفاضل المشار اليه الى مجمعنا العلمي طائفةً من مصنفاته وتقريراً مختصراً عن السمرمر، استفدنا منه في ما نحن بصدده من هذا البحث . وسنذكر المهمّ منه . لكننا لم نعثر على نص قديم يتعلق بأسطورة السمرمر غير ما نقلناه عن الخفاجي في القرن الحادي عشر . بل ظفرنا بنص آخر أقدم منه غير أن أمره أعجب : ذلك أن النويري ذكر في كتابه نهاية الأرب جزئه العاشر صفحة (٢٩٥) بمناسبة الكلام على الجراد نقلاً عن أحد مؤرخي حلب !! في حوادث سنة (٥٩٢) . والمؤرخ الحلبي روى الخبر عن القاضي الفاضل، والقاضي الفاضل رواه عن قاضي حلب ابن شداد . وهؤلاء الرواة من رجال الفضل اللامعين فى القرون الوسطى الاسلامية، وروايتهم هذه حجة لمن يدعي أن المؤرخين ورواة الأخبار (أو معظمهم) في الاسلام كان يغلب عليهم قلة التمحيص وعدم التدقيق والاكتفاء بالنقل المجرد وترك القارئ في حيرةٍ من أمره . وخبرُ ابن شداد طويل نلخصه بما يأتي :

بلغ ملك حلب (الظاهر بن صلاح الدين) أن زحوف الجراد تتوالى على بلاد الشام وأن طائر (السمندل) كفيل بإتلافه وأن في خوزستان وهي (الأهواز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ببلاد العجم) عين ماء اذا أحضر منه تبعه طير (السمندل) الى حيث الجراد فيقتنيه . فأرسل الملك ثلاثة رجال من العجم الى الأهواز فأتوا بشيء من ماء العين وحملوه مشاةً لا ركباناً . واذا نزلوا علقوه ولم يضعوه على الأرض . مصحوبين بقافلةٍ لا منفردين . كل هذه شروط لتأثير الماء . وشروط أخرى ذكرها النويري تغني نفسُ القارئ من ذكرها . أما رواة القصة الأفاضل وملك حلب نفسه فما غثت نفوسهم ولا أنفت من ذكر أو قبول هذه الشروط غير المعقولة . حتى وصل الماء الى حلب فعُلِّقَ . ووصل طير السمندل في جمع كثيف من بنات جنسه وهو يشبه السماني في قدره ولونه فاستأصل الجراد وكان يأكل الجرادة والاثنتين والثلاث والأربع في دفعةٍ واحدة ويرميها في الحال من بطنه ويبحث عن بيض الجراد في الأرض حتى صارت الأرض كالغربال من آثار النقر . قال : (يعني القاضي ابن شداد) وأمر هذا الماء مشهور معلوم مستفيض اه .

فقصة السمندل في (نهاية الأرب) هي بسطٌ للخبر الذي ذكره الخفاجي في القرن الحادي عشر عن السمرمر من حيث أن الجراد يُطرد بماء يُجلب من بلاد العجم فيتبعه الطائر . وبين الزمنين نحو خمسة قرون . غير أن طائر القرن السادس اسمه (السمندل) وطائر القرن الحادي عشر اسمه (السمرمر) فكيف تحوّل السمندل الى السمرمر ؟ أما السمندل فطائر معروف واسمه هذا مذكور في كل كتب اللغة العربية وفي كل المصنفات في الحيوان . وخلاصة ترجمة السمندل أنه مقيم في الصين والهند لا تحرقه النار حتى إنه يبيض ويفرّخ فيها ويُتخذ من ريشه مناديل تُلقى في النار فتغسلها من الوسخ ولا تحرقها . وقد رأى ابن خلكان في القرن السابع قطعة من هذا النسيج فما أحرقتها النار . وكل هذا خرافة كما حققوا . وخبر ماء السمندل أو السمرمر تناقلته الرواة . وحاول الاستفادة منه والانتفاع به سكان الشرق قرناً فقرناً : فقد ذكر الشيخ كامل الغزي في تاريخه عن حلب أنه في أواسط القرن العاشر للهجرة ظهر الجراد وجيء بالماء من العين وعُلِّق ابريقه على مأذنة جامع القلعة . وفي سنة (٩٦٤) جاء الجراد فأرسل والي حلب (قُباد باشا) رجلاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أعجمياً الى أصبهان وجموا للرجل (٢٠٠) دينار فذهب وعاد بالماء بشروط تختلف عن الشروط التي رويناها آنفاً عن (نهاية الأرب) لكنها تماثلها في الغرابة وتكلف السماجة : مثل قوله : لا يدخل الماء تحت سقف ولا تحت قنطرة باب قنسرين بل من فوقه وفوق أسوار حلب حتى علقوه على قبة التكية الخسروية وحرك الشيوخ الماء ليجيء الطائر ، فلم يجئ !! حتى أتلفت أرجالُ الجراد المزارع . فقال دراويش الماء إذ ذاك ان السبب في ذلك هو الاخلال في بعض الشروط . قال الشيخ الغزي : وبعدَ الوالي (قباد) تولىَّ حلب (فرهاد باشا) واشتدت مصيبة الجراد فخرج الأهالي لاستقبال ماء عين السمرمر فرُفع على مأذنة القلعة بالشروط الغريبة التي مرَّ ذكرها ، وبات الناس قريري العين .

أقول : وظلت أسطورة ماء السمرمر حتى زمننا الحاضر لكن ضعفت ثقةُ الفضلاء بها وشمروا بحماقة من يعوّل عليها : فقد ذكر الشيخ كامل أنه أدرك دراويش البكداشلية يحملون أباريق من صفيح فيها ماء السمرمر يعلقونها على منبر جامع حلب ويتقاضون من وُلاتها عطية تقليدية . ولم يُر من هذه الأباريق أقل فائدة . وأذكر أني شاهدت في حداثتي قنينةً معلقةً على أحد منابر المساجد لا أذكر في أيّ بلد من بلاد الشام وقيل لي إن في القنينة ماء السمرمر . فأسطورة ماء السمرمر أو السمندل فارسية الأصل وانتشرت في بلادنا وخاصة حلب بواسطة الدجالين من دراويش العجم . ومن أجل التثبت في ذلك اتصلنا بالمفوضية الايرانية كما ذكرنا فأرسلت الينا الكتاب التالي بتوقيع الأستاذ (احمد آرام) وهذا نصه : ان الطائر الذي يأكل الجراد يُسمى في ايران (سار) وهو كما علمتُ يسمى في العراق وسورية (زرزوراً) وإني ما سمعت كلمة (سمرمر) وما رأيتها في القاموس الفارسي الصغير الموجود عندي ، وكثيراً ما سمعتُ الأسطورة التالية عند زيارتي لبعض القرى الواقعة بقرب طهران وهي : عند هجوم الجراد يبعث أهلُ القرية واحداً منهم الى بيت من بيوت خاصة : تسمى باسم (أجاق) وعلى الغالب يكون رئيس هذه العائلة من ذرية سيدنا محمد (ﷺ) ليشتري منها ألفاً أو ألفين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

او أكثر من هذا الطائر . ورئيس هذا البيت يُعطي رسول القرية كوز ماء فيرجع به الى القرية ويصبه في بركة ماء . وهم يزعمون أن بهذه الصورة يجلب الزرزور ويحارب الجراد ويبيده . وعندما يتعب من الحرب يدخل في ماء البركة ويغتسل فيه ويرجع من جديد لمكافحة الجراد حتى يُبيده . والآن بعد وفور أسباب المكافحة الكيمياوية والميكانيكية هذه الخرافة والعمل بها آخذ بالزوال اه الكتاب والتوقيع (أحمد آرام) معلّم زبان فارسي .

والأسطورة التي ذكرها حضرته تشابه الأساطير العربية التي رويناها في هذا الشأن . والذي يهمنا بالأكثر من كتاب الأستاذ آرام التعجب من قوله أن كلمة (السمرمر) لا يعرفها ولم يعثر عليها في القاموس الفارسي الصغير . وكنت أعهدها فارسية لما أن قصة ماء السمرمر نشأت ببلاد فارس . وزد على ذلك أن (الخفاجي) قال ان هذا اللفظ فارسي . وقد حمله على هـذا القول ما ذكرنا من أن منشأ القصة فارسي حتى قال احمد آرام ما قال . وهو أعرف بلغته وبما في معاجمها . وان كان المعلم آرام قال إنه راجع لفظ (السمرمر) في القاموس الفارسي الصغير فإني راجعته في أشهر قواميس الفرس وهو (برهان قاطع) فلم أجد فيه ذكراً لكلمة (السمرمر) مع أنه ذكر طير السُمانى وطير السمندل وقصته الخرافية وهي عدم احتراقه بالنار . فسمرمر إذن ليست فارسية ولا عربية . وليست من اللغات الأوربية بالطبع لأن معاجم الغرب اذا اضطرت الى ذكر السمرمر عبرت عنه بلغاتها (starling) (étourneau) أو بما ترجمته الطائر الورديّ اللون أو الزرزور الوردي . وأكبر دليل على أن اللفظ ليس من لغات أوربا أن قاموس (الفرائد الدرية) لأصحابه اليسوعيين في بيروت فسر لنا السمرمر بقوله : (oiseau qui devore les sauterelles) أي العصفور الذي يلتهم الجراد . فقد عبر عنه بما اشتهر بين الناس في بلادنا الشامية التي يقطنها اليسوعيون . فلم يبق الا أن تكون كلمة (السمرمر) من اللغات السامية التي اقتبست لغتنا العربية منها طائفةً كبيرةً من الألفاظ فراجعنا ما كتبه العلامة أفرام بطريرك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السريان المقيم بحمص في كتابه الذي نشره تباعاً في مجلة المجمع العلمي وتتبع فيه جميع ألفاظ اللغات السامية العبرانية والبابلية وخاصة السريانية فلم يذكر بينها لفظ السمرمر الشائع في العربية الحديثة فكل هذا يورث العجب من كيفية تولد هذا اللفظ على ألسنتنا، ويحملنا على أن نفرض في منشئه فروضاً فنقول إن سمرمر إما أن تكون محرفة من كلمة (سَمَيْرَمْ) التي هي اسم عين الماء في أصبهان أو اسماً للقصبة نفسها كما قال البستاني في دائرة المعارف. وإما أن تكون محرفة من كلمة (سمندل) أو سمندر بالراء وهو لغة في السمندل باللام وهو اسمه الشائع في القرن السادس للهجرة كما في قصة نهاية الأرب، وإما أن يكون لفظ السمرمر من كلمة (سمرمرة) بالتاء في آخره وهو اسم عربي للغول كما في كتب اللغة العربية: فطير السمرمر غول للجراد كما أن الغول الخرافية غول للبشر. ولا يمكن أن تكون سمرمر محرفة من (سَمَرْمَد) بالدال وهو من أسماء السمرمر كما قال أمين باشا المعلوف: لأن السمرمد بالدال غير مذكور في كتب اللغة العربية ولا في كتب الحيوان وإنما هي محرّفة عن كلمة السمرمر بالراء غالباً وأصبحت من لغة سكان البوادي كما يأتي. وهنالك طريقة في تحليل الألفاظ المجهولة الأصل وهي مما يتداعب به الأدباء في مجالس أنسهم: ذلك أن يقال إن أديباً حدّث جلساءه بعجائب الطير الذي يأكل الجراد وما زعموا من أن اسمه (سمندل) وأنه لا تحرقه النار وخبر استقدامه من بلاد العجم بواسطة ماء عين (سَمَيْرَمْ) وقصّ الأديب من ذلك قصصاً أدهشت القوم. وبعد ليالٍ طلبوا منه أن يحدّثهم عن الطير المذكور فقال هيهات ذاك (سَمَرٌ مرّ) أي ما قصصتُه عليكم (سَمَرٌ) من أسمار الليل (مَرّ) وانقضى فلا رجعة له: على حدّ قولهم (كلام الليل يمحوه النهار): فمن كلمتي (سَمَرٌ) و (مَرّ) تولدت كلمة (سمرمر) وشاعت في العصور الأخيرة اسماً لطائر يأكل الجراد وتغلغلت في اللهجة الشعبية الشامية أو الدمشقية حتى قالوا في أمثالهم: «يا جراد جاءك السمرمر».

والذي يرتاح اليه القلب أو هو الحق في تولد كلمة (السمرمر) أنها محرفة من كلمة (سَمَيْرَمْ) اسم للعين أو البلد: فكان دراويش العجم الذين يبيعون الماء العجيب ينادون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عليه بين البيوت (ماء سُمَيْرَمْ ماء سُمَيْرَمْ) كما ينادون عليه بلغتهم الفارسية (آب سارْ) (آبِ سار) أي ماء الزرزور ماء الزرزور . ثم ان كلمة (سُمَيْرَمْ) كما حققه صديقنا العلامة الأديب (محمد محيط طباطبائي) المستشار الثقافي في المفوضية الايرانية بدمشق ـ هي أصل كلمة سمرمر وقال ان ميم (سُمَيْرَمْ) الأخيرة تكتب بالخط الفارسي هكذا (مر) بشكل الميم والراء فتصحفت (سُمَيْرَمْ) الى (سُمَيْرَمَرْ) ثم الى (سَمَرْمَرْ) على وزن سَفَرْجَلْ العربي . وربما كان هذا معنى عبارة البستاني السابقة منذ قال (ويسميها أهل الشام بالسمرمر) اذا جعلنا ضمير يسميها راجعاً الى (سُمَيرم) بمعنى العين أو البلدة : فالشاميون حرّفوا (سُمَيْرَمْ) الى سمرمر وسموا به الطائر . ولفظ السمرمر ان كان مجهول الأصل فان مسماه وهو الطائر ليس بمجهول اذا جعلناه نوعاً من الزرازير يلتهم الجراد بشره ونشاط . ولكنه أعجز من أن يبيده أو يقطع دابره . أما اذا جعلناه مبيداً مفنياً فانه يدخل في باب الأسمار . التي يمحوها النهار .

وآخر من نعتمد عليه في هذا البحث بحث الطائر المسمى بسمرمر صديقنا المرحوم أمين باشا المعلوف صاحب كتاب معجم الحيوان فقد قال ما نصه (السمرمر نوع من الزرازير أسود الرأس والعنق والجناحين وسائره أحمر ومن أسمائه (سَمَرْمَدْ) بالدال و (صَفَر مادي) و (سلكوت) و (باذنجان) . وقال ان السمرمر يأكل الجراد أكلاً ذريعاً اه : وقد فسر المعلوف (صفر مادي) بقوله (أي طائر بلاد مادي) وهي جبال الأهواز عند الآراميين (وصفر بمعنى طائر) ومادي هي بلاد فارس كما لا يخفى . ولعل أصل (مادي) اسماً للأهواز كما قال . والأهواز هي المسماة اليوم باسم (خوزستان) و (عربستان) . وأما (سلكوت) فقد فسرته المعاجم العربية بقولها (اسم طائر) فاذا كان سلكوت من أكلة الجراد كان هو السمرمر . وكانت العرب تسمي السمرمر بالسلكوت لكن لا تعرفه باسم مفني الجراد . و (سمرمد) بالدال محرفة عن سَمَرْمَرْ بالراء قطعاً . بقي التساؤل عن تسمية السمرمر (بالباذنجان) كما جاء في عبارة الأستاذ المعلوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد كثر تفكيري فيه حتى اتفق لي أن كنت في ضاحية المهاجرين مع الشروق فصادفت قرويا غريبا هائما على وجهه فسألني عن دار أمير عرب الفضل ثم سألني عن الجامع (المموي) وأنه يريد أن يصلي فيه صلاة الجمعة . فلاحظت من قوله هذا أن فيه لوثة أعرابية أي سذاجة أهل البادية . فقد سمى الجامع الأُموي بالجامع (المموي) ولا يكاد يحسن نطقها . فأعدت سؤاله عن اسم الجامع فأعاده مرتبكاً ، فضحكت وسألته عن بلده قال إنه من ديرة حلب وان قريته اسمها (تل علوش) وذكر معها قرى أخرى واقعة بين حلب وادلب . فقلت لبعض المارة خذ هذا الأعرابي معك وأرشده الى طريق الجامع الأُموي . ثم عدت فاستوقفته وسألته هل تعرف السمرمر ؟ ج — لا أعرفه .

— الطائر الذي يأكل الجراد . قال: أعرفه ولكن اسمه (السمرمد) أي بالدال . فذكرت ما قاله المعلوف في معجمه من أن السمرمد من أسماء السمرمر . ثم سألته :

— أليس السمرمر هو الزُرزور ؟ قال :

— لا . السمرمر وَحْد . والزرزور وَحْد .

فالأعرابي في قوله هذا خالف المعلوف الذي جعلها واحداً . ويكاد يوافق الأمير مصطفى الشهابي الذي جعل في معجمه السمرمد طائراً غير السمرمر . ثم سألت الأعرابي ؟ وهل يسمى (السمرمد) الذي يأكل الجراد (باذنجان) فقال — لا يسمى باذنجان [1] وأظهر العجب من قولي . فسألته : ألستَ ترى يا أعرابي أن السمرمد يشبه في لونه وشكله الباذنجانة فانفرجت شفتاه عن أسنانه البيض مبتسماً وقال: إي والله . فقلت في نفسي ان الشعر أو المعاني الشعرية مركوزة في طبع البشر على اختلاف أطوارهم : كل بحسبه . ولا يخفى أن الباذنجانة سوداء من عند رأسها ثم يخف سوادها فيصبح بنفسجياً ثم يحمر قليلاً من تحت قمعها الأخضر . وهكذا لون السمرمر تقريباً أسود بنفسجي محمر أو وردي كما يصفه كتاب العرب . والمعلوف أوثق من كتب عن الحيوان بلغتنا العربية في عصرنا ،

(١) والذي في كتب اللغة : انه كما يقال لذكر الورشان (ساق حرّ) يقال لطائر صغير جداً (جُحَيل حرّ) وهو المسمى في العراق باسم باذنجان !! اهـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد حقق أن السمرمر من فصيلة الزرازير . وسألت علماء الزراعة المعاصرين من أصدقائي : فالأستاذ وصفي زكريا قال إن مكافحة السمرمر للجراد لا قيمة لها وقد عشت عمري أشتغل في فن الزراعة ولم أعنَ بالسمرمر ولا بأسطورة إبادته للجراد . ومثله الأستاذ هولو العابد (ابن عزت باشا) الذي درس فن الزراعة في انكلترا : فقد قال إنه لم يسمع بالسمرمر في بحثه الفني الا ما يسمعه في المثل من عامة أهل دمشق (ياجراد جاءك السمرمر) .

هذا المثل وأسطورة جلب الماء من العين التي هي في بلاد العجم جعلت الناس يتوهمون في بعض أنواع الزرازير قوةً خارقة للعادة في إبادة الجراد وسموا هذا النوع سمرمراً . وأدرك الحظ الزرزور السمرمري فطمست شهرته في ابادة الجراد شهرة غيره من أبناء جنسه : كالقلق مثلاً فانه يتسلط على الجراد فيفنيه كما قال الغزي في بحث الطيور القواطع التي تنتاب حلب قال (طير اللقلق يخرج عند ظهور الجراد أحياناً ويُهلِكُ من الجراد قسماً كبيراً) فنسب الإفناء للقلق ولم ينسبه للسمرمر . ولكن الشهرة كانت له ، لا لابن عمه .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net